

بين لغة الأدب ولغة العلم للدكتور توفيق الطويل

اللغة

الفنية هي أداة التعبير
عن خصائص الأدب

كفن جميل ، والرياضة هي أداة
التعبير الوحيدة عن خصائص المعرفة العلمية
وبين الأدب والعلم فوارق ضخمة تصور
ما بينهما من تعارض يباع حد التوافق في
أكثر الحالات ، ويقتضينا المنهج العلمي أن
نستهل حديثنا بتعريف ما نعصده بمفهوم
الأدب ومفهوم العلم .

مفهوم الأدب :

حين يرى الأديب مساهد الطبيعة وأحوال
المجتمع وأحداث الحياة ، وحين يتأمل عبر
التاريخ ويستشعر بشائر المستقبل ، يتحول
كل هذا في نفسه إلى انطباعات تتمثل في
أحاسيس ووجدانات وخواطر ، يعبر عنها
في صور أدبية نثرية أو شعرية ، في لغة يحسن
اختيار ألفاظها وتركيب جملاتها ، ويصني
عاليها معاني ودلالات جديدة ، وجمال أدائه
يشير في نفس قارئه أو سامعه مشاعر وخواطر

تشيع فيه السهجة والإمتاع ، ومن أجل أن
يحقق الأديب هذا ، يديح لنفسه حين ينفي
عباراته أن يقدم لفظاً ويؤخر لفظاً ، ويحذف
ثالثاً ويصيف رابعاً ، ويستخدم خياله الذي
يتجاوز المعاني الحقيقية للألفاظ ، إلى دلالات
جديدة ، ويزيد فيصطنع في تعبيراته الخبار
والتشبيه والاستعارة ونحوها . مما يمكنه من
خلق صور أدبية يستعين بها على رسم
أحاسيسه وانفعالاته وخواطره في لوحات قد
تمثل مطراً طبيعياً أو حوا نصيباً أو مشهداً
من مشاهد الحياة . وإن كان الدكتور طه حسين
يقول في كتابه «حافظ وشوقي» : «إن العقل
هو مصدر الإحادة الفنية ، وإليها إن كانت
أترا من آثار الشعور ، ومظهرها من مظاهر
الحس القوي . والعواطف الرقيقة ، والخيال
الحصب . فهي لغو إذا لم يستمد غذاءها
الحقيقي من العقل والعلم» .

والأديب بإحساسه بالانماط اللاحقة وخصائصها
والعلاقات الحسية القائمة بين بعضها

(*) ألقى البحث في الجلسة الخامسة ٢ / ٥ / ١٩٨٥ م

وبعض ، وبقدرته على صياغة العبارات ورسم الصور ، وبموهبته الفنية ورصيده الأدبي يستطيع أن يولد عند قارئه أحاسيس جديدة وصور طريفة ، ويشير في نفسه الإعجاب والإمتاع .

ولكل أديب أسلوبه ، أى طريقته في التعبير ، ويكون أسلوبه وليد موهبته الفنية وثقافته وتدوقه لاعة وطرقها في الأداء ، وهو يتأثر ببيئته وروح عصره والأدباء يختلفون في تركيب عباراتهم بين إيجاز وإسهاب ، وعموض وإيضاح ، وبساطة وإغراب ، وبسهولة وتعقيد ، وتنافس وجمال . وبحو هذا مما نراه كثيرا . ومرد الأمر في الأسلوب الأدبي إلى البلاغة ، وهى في تعريفها الشائع «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» بل ذهب القدماء إلى القول بأن الأسلوب معناه العام هو «طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الإيضاح والتأثير ، أو الصرب من السطم والطريقة فيه كما قال عبد القاهر الجرجاني ت / ٤٧ هـ في دلائل الإعجاز

والأسلوب البليغ هو الذى يعبر بصدق عن شخصية صاحبه ، فالأسلوب هو الرجل أو الإنسان نفسه كما قال العالم المرنسى

بوهون ١٧٨٨ G L. L. Buffon وقد شاعت قولته وأريد بها أن الأسلوب هو مرآة لشخصية الأديب (١) ومن ها شاع القول بأن الأدب هو صدق التعبير المعنى عن إحساس صادق لصاحبه وإن كان علينا أن نعرف أن الأديب لا يعبر دائما عن تجارب شخصية عاشها ، بل هو قادر بقوة خياله على أن يعيش أى تجربة إنسانية ويعبر عنها متخطيا زمانها ومكانها .

وكان أناتول فرنس ١٩٢٤ A. France يقول إن الأسلوب الأمثل في الأدب هو الأسلوب السهل الذى لا يكدر الدهن ، فللعلم علينا حق الانتباه والتأمل ، وليس للمصون ذلك الحق ، لأنها بطبيعتها تسر ولا تميد ، ووطيفتها أن تعجب ولا وطيعة لها غير ذلك ، فيحب أن تكون جذابة بغير شرط . .

يروى العقاد هذا الرأى في أحد مقالى له عن الأسلوب في «مراجعات في الآداب والهنون» ثم يناقش الرأى فيقول «إنما تمتدح السهولة في الأدب حين تدل على السوغ والمقدرة ، إذا أدى بها الأديب المعانى التى يؤديها غيره بمشقة وإعتساف... والصور الخيالية والمعانى الذهنية هى الأصل في جمال الأساليب في الأدب والهنون . »

(١) عالم نيات . قال في «خطبة في الأسلوب» محاضرة ألقاها في ٢٥ / ٨ / ١٧٥٣ أمام الأكاديمية الفرنسية ، ونص قوله هو الأسلوب هو الرجل نفسه . le Style est l'homme même.

ويقول طه حسين في الجزء الأول من حديث الأربعاء: إن الأديب عندي هو الذي يصنع أدبه ويعمله عملاً ، ويتمياً له فيطيل التهيؤ ، ويفكر فيه فيمعن في التفكير ويتكلف لذلك من الجهد والمشقة ما يرضيه ويعينه . . . أما الشاعر الذي ينحت من صحر وهو الذي يعجبني ويرضيني لأنه لا يقول الشعر وإنما يعمل . . . ولأن الشعر لا يصدر عن طبعه وحده ، وإنما يصدر عن طبعه وعقائه وإرادته . »

هذه كلمة محمّاة خاطفة عن مفهوم الأدب ، فإذا نريد بمفهوم العلم ؟

مفهوم العلم :

يراد بالعلم في معناه الواسع الفضفاض أى فرع من فروع المعرفة البشرية يجرى على نهج ونظام ، ومنه علم الأدب ، أما بمعناه الاصطلاحي الضيق ، وهو ما نقصده في هذا الحديث ، فإراد به منذ أن ظهرت مناهج البحث العلمى الحديث في مطلع عصورنا الحديثة^(١) - يراد به العلم الطبيعي أى علم الفيزياء وما تفرع عنه من علوم تشاركه في مناهجه التجريبية . والعلم بهذا المعنى هو كل دراسة تتوافر فيها أربعة أركان مجتمعة لا يغنى بعضها عن بعض ، أولها منهج البحث الذى يتحتم أن

يكون تجريبياً استقرائياً يقوم على الملاحظة الحسية والتجربة العلمية ، إن كانت ممكنة ، والملاحظة توحى للذهن والحواس إلى ظاهرة أو ظواهر حسية للكشف عن صفاتها وخصائصها ، توصلاً إلى كسب معرفة جديدة . والتجربة ملاحظة يتدخل أثناءها الباحث ليلاحظ الظاهرة في ظروف هيأها وأعدّها بإرادته ليدرس الظاهرة في الوقت الذى يريده ، وليحقق بذلك أغراضه ، وفى الحالين يستخدم آلات وأجهزة تعوض قصور الحواس . أما ثانياً أركان المنهج فيتصرع عن أولها ، إذ طالما كان أول الأركان هو الاعتماد على الحواس في ملاحظة الظواهر ، فإن ذلك يستتبع أن يكون موضوع البحث جريئيات محسوسة ، أى ظواهر طبيعیه أو وقائع جريئية في عالم الواقعي المحسوس ، فلا يجوز للعالم أن يتجاوزها في بحثه إلى دراسة ما وراء المحسوس من حقائق - كعالم الأرواح - أن يدرسها ويؤم بها كإنسان أو مفكر أو فيلسوف وليس كعالم . وثالثها وهو أهم أركان العلم أن يتوصل العالم عن طريق دراسته التجريبية للوقائع الجريئية إلى وضع قانون عام يفسر الظاهرة التى يدرسها . يقول برتراند رسل ١٩٧١ Bertrand Russell في كتابه . Scientific Gutlook إن العلم وإن كان يبدأ بدراسة الوقائع الجريئية

(١) وإن سبق إلى معرفته من العرب حابر بن حيان ت ٨١٣ أوالحسن بن الهيثم ت ١٠٢٩ م انظر كتابنا العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي ص ٣٠ وما بعدها .

إلا أن معرفتنا التحريرية بهذه الوقائع لا تكفى لقيام العلم ، لأن العلم لا يستقيم إلا إذا كُتبت عن القوانين العامة التى تكون هذه الوقائع الجزئية تطبيقاً لها ، ومن هنا كانت أهمية الواقعة الجزئية تقوم فى أنها مجرد مثل يشهد بقانون من قوانين الطبيعة « وهذا الركن - وضع القوانين العامة - لا يتواءم فى رأينا فى الدراسات الأساسية التى يرعى اليوم أصحابها أنها أصبحت اليوم علوماً ، مستعارة من العلوم العبرانية^(١) وإن كان هذا رأى يخصص المستعدين بها من رءائنا .

ورابع الأركان - وهو لا يقل اليوم أهمية عن ثالثها - هو أن تترجم نتائج الدراسة العامية (وهى القوانين) إلى رموز رياضية أى أرقام عددية ، فالعلم اليوم مولع بتحويل الكميات (وهى الصفات التى لا تقاس) إلى كميات عددية ، تحقيقاً للدقة والصبط ، ولهذا تأكد القول بأن لغة العلم الوحيدة هى الرياضة فلا علم إذا لم تقم دراسته على المياس أو الوزن ولهذا حولت الدراسات العلمية المضوء إلى طول الموحات وقصرها والصوت إلى سعة الذنبه ، والحرارة إلى موحات حرارية ، واللون إلى موحات صوتية يحدتها . . . رهام حرا ، وذلك لأنه كان قياس هذه الضواهر والتعبير عنها بأرقام

ومن تعريف الأدب وتعريف العلم على النحو السالف الذكر ، نستشف أن الخلاف بين لغة الأدب ولغة العلم هو خلاف تعارض قد يبالغ حد التناقض فى كثير من الحالات .

وسعرض فيما يلى أهم وجوه الخلاف بين لغة الأدب ولغة العلم ، وقد حصرنا المهمل منها فى سبعة فروع

١ - الجديد والقديم فى الأدب وفى العلم :

يستهدف العمل الأدبى إرضاء حساسية القارئ وإشباع ذوقه المسمى ، وإن روائع المقطوعات الأدبية شعراً ونثراً تعيش عصوراً طويلة حياً إلى حب ، والحديد منها لا يستعد قديمها ولا يقلل من روعته ، إن القطعة الأدبية الرائعة تعيش أبداً ولا تموت بمضى الزمان ، إن مقطوعات الشعراء وروائع الأدباء منذ أقدم العصور لا تزال حتى اليوم تثير عند قرائها أعظم مكان من الإعجاب ، ويفتتن بها أصحاب الأدواق حتى من المحدثين والمعاصرين إن الأدب لا يغنى حاضره عن ماضيه ، لأن ماضيه ، يجرى فياضاً متجدداً مع كل أديب عبقرى فى كل عصر من عصور التاريخ ، يتبع بهجة القارئ ويتبر متعة السامع ويهز المشاعر ويريح الأعصاب . وليس هذا هو الحال فى العلم . فمن الميسور والمألوف إغفال العلماء

(١) من بحث لما تحت عنوان إشكالية العلوم الاجتماعية أنها ليست علوماً ، وقد نوقش البحث فى ندوة علمية فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة .

والناس لماضييه ، لأن تاريخ العلم مختلف عن العلم نفسه ، يقول « ليون روبان » L. Robin في كتابه : الفكر الإغريقي وأصول الروح العلمية^(١). إن ماضي العلم هو الجزء الميت الفاني من المحاولات التي قام بها العلماء ابتغاء التوصل إلى الحقيقة ، أو هو الجهد الذي أدركه النسيان بعد أن بلغ أصحابه الغاية المطلوبة منه ، وهذا الماضي يشبع رغبة الطامع في التوسع في المعرفة ولا يجاور هذا الحد ، وفي وسع دارس تاريخ العلم أن يصح بمعرفة النتائج التي انتهت إليها بحوث سابقيه من العلماء ، دون الرجوع إلى تطور التفكير الذي أسلم إليها ، ولهذا فإن العالم يبدأ بحوثه عادة من حيث انتهى سابقوه من العلماء ، ينظر إلى الأمام ولا يتلمت ورائه ، وقوانين العلم يلتقي عندها العلماء جميعا ، فإن تشب بين بعضهم والبعض ، يصدد أحدها ، خلاف ، حسموا الخلاف بالرجوع إلى الواقع ، واستغناء التجربة ، وإذا كاس المقطوعة الأدبية تصدر عن صاحبها ، ولا تعرى إلى أحد غيره ، فإن قوانين العلم لا تنسب إلى أصحابها إلا على سبيل التاريخ ، لأنها ملك مشاع بين كل العلماء وجميع الناس .

٢ - ذاتية الأديب وموضوعية العالم :

واضح* مما أسلفنا أن الأدب عند صاحبه

مبدعاً ومتلقياً فوائده الذاتية الخالصة Subjectivity لأنه يصدر عن مشاعر صاحبه وانفعالاته وأخبايته وخواطره ، وأما العلم فلا قيام له بغير الالتزام في بحوثه بالموضوعية بقدر ما تسمح الطاقة البشرية^(٢) ، وقد عبر « كلود برنار » Clau d Berner ١٨٧٨ عن هذه التفرقة بين المهجين بقوله . « الفن أنا والعالم نحن » فالمظهر الطبيعي الواحد يصوره مجموعة من الشعراء في قصائد رائعة متباينة وبمقدار ما يكون بين بعضها والبعض من فوارق في تعبيراتها الأدبية وصورها الفنية ، يمكن أن تكون عصرية كل من أصحابها ، أما في حال العلم فإن الظاهرة الواحدة إذا عرض لدراستها مجموعة من العلماء ، انتهوا آخر المطاف بشأنها إلى نتائج واحدة ، لأن سبلهم جميعا إلى دراستها هو الملاحظة الحسية التي تستهدف وصف الظاهرة وبيان خصائصها ، ثم إحراء التجربة التي يمكن تكرارها للتحقق من صواب نتائج الدراسة ، فإن اختلاف أساليب بعضهم مع بعض ارتدوا إلى الواقع مره أخرى واستعملوا التجربة لتحسم أي خلاف يقوم بهذا الصدد .

ويراد بموضوعية البحث Objectivity إمضاء الخبرة الذاتية لمعرفة الأشياء كما هي

(١) Leon Robin La pensée Gréque et les Origines de l'Esprit Scientifique Greek

نقله إلى الإنجليزية M. R. Dobie تحت عنوان

Thought the Gignes of th suentifie spirit

فى الواقع، وليس كما يتمنى الباحث ويريد
أما الخبرة الذاتية فهى قوام الفنون ، ومنها
الأدب ، لأن صاحبها ينظر إلى الشيء من
خلال عواطفه وأحاسيسه وانفعالاته وأحيلته
فالفنون ابتداء ذهنى تلقائى ، والشخصية
الفردية فى الفنون تحتفظ بذاتها على مر
الزمان .

٣ - صدق الأديب ونزاهة العالم :

إن نقاد الأدب المتميز شعراً أو نثراً
يجعلون معيار تقييمه هو صدق صاحبه فى
التعبير الفنى عن مشاعره وخواطره ، ولا
يمسحون مجالاً للحديث عن إبعاد عواطفه
وميوله ورغباته فى مجال إبداعه ، لأنه لو فعل
هذا لعز عليه أن يكون أدبياً بينما الأمر على
نقيض هذا فى حال العلم ، فإن من أخص
خصائص العالم أن يكون نزيهاً ، ويراد
بالنزاهة *disinterestedness* إماتة الذات
self-mortification أو تنحية الذات وإبعادها
عن مجال البحث *self-elimination* أى طراح
الهوى والتزام الحيادة واستبعاد الاعتبارات
الشخصية وغير هذا مما ييسر للباحث الكشف
عن هده من غير عائق ، فالعالم عليه

ألا يخضع بحته لمصاحبة شخصية أو شهوة
فردية ، أو عقيدة دينية أو نظرية علمية
أو فكرة قومية . . إلى الحد الذى تنتفى
فيه أمانته فى تقصى الحقيقة ، بل عليه أن
يجرد نفسه من أهوائها ونزواتها وميولها
ما مكنته طبيعته البشرية من ذلك (١) .

والنزاهة تقتضى إنكار الذات *self-denial or abnegation* والعروف عن استعمال العلم لتحقيق
مآرب شخصية ، فالعالم يظل فقيراً ، بينما يثرى
أصحاب المصانع الذين يطبقون قوانينه ،
لأنه اختار البحث والتأمل ، وبالتالى أثر
الفقر . . .

ومن دلالات المراهة أن العالم قد يتوحى
دعوة الآخرين إلى نقده وإثبات خطئه إن كان
قد ضل السبيل فى بحوثه ، هكذا فعل
باستير ١٨٩٥ L. Pasteur . حين شجع
بوشيه Bouchet على أن يثبت صواب
نظرية التولد التلقائى *Spontaneous*
Generation التى كان باستير قد أثبت

خطأها ، ومعنى هذا أن العالم يتقصد
روح القاضى الزيه ، فيتجرد عن أهوائه
وميوله ورغباته ومصالحه ما أمكنه ،
ويدتطر فى صبر حتى يعرف كل ظروف

(١) كان فلوغل J. Flugel مات منذ بضع سنين - صاحب A 100 years of Psychology وغيره
من إنتاج عرير - كان أستاذاً مساعداً لعلم النفس (Reader) بجامعة لندن ، وحلا كرسى أستاذ المادة ب مقام له
مرشحاً وحيداً ، ولكن اللمحة رأت أنه متحمس جداً لطريبات فرويد S. Freud إلى حد أنه يراداً الحق كانه ،
ويرى كل ما عداها باطلاً . وهذا يطعن فى موضوعية بحوثه ودراسه كعلم ، فحرمة من أن يكون رئيساً لقسم علم النفس

القصصية التي يتصدى للحكم فيها ، ويفحص كل الأدلة المؤيدة والمعارضة لها ، وكل هذا يقتضيه طاقته أخلاقية وذكاء ذهني ويزوعا نقديا لم يسهل توافره ، ولا سيما في العلوم الإنسانية التي تتخذ الحقائق البشرية موضوعا لدراستها ، والعالم الذي تعوره المراهة ، يكون موضع استخفاف واحتقار في دوائر العلماء^(١)

٤ - وسيلة التعبير في الأدب وفي العلم :

لعمه الأديب أداة إثارة وتأثير وإقناع ، إنه يعبر عن مشاعره وخواطره في صور هية تثير في قارئه المتعة والراحة ، أما العالم فيحرص على التخلص من الألفاظ والصور الفنية وعموضها ، ويتجنب إثارة المشاعر والوجدانات ، ولهذا فإن دراساته لا تكون إلا متى أمكن القياس أو الوزن ، كما أشرنا من قبل ، فالعلم الحديث كلف بتحويل الكميات (الصفات التي لا تقاس) إلى رموز رياضية أو كميات عددية ، ومن أجل

هذا لازمت السحوث العلمية آلات وأجهزة تعبر عن نتائج دراساته بأرقام يتساوى جميع الناس في فهمها ، وهذا اختفت في ساحه العلم الأحكام الذاتية والتقديرية الشخصية ، وأصبحت لغة العلم الوحيدة هي الرياضة ، يقول سليمان J. W. Sullivan في كتابه القيم : أسس العلم الحديث « The Bases of Modern Science » إن

أقصى غاية للعلم أن يقدم لنا وصفا رياضيا شاملا للظواهر في عبارات تضم أقل عدد ممكن من المبادئ والحقائق العقلية . إن الرياضيات هي اللغة الوحيدة التي يستخدمها العلم ، ويقول هذا مكررين دون أن نمل التكرار ، وبعد أن كانت الملاحظة الحسية أهم ركن في منهج البحث العلمي ، احتل مكان الصدارة في عصرنا هذا رد الوقائع إلى أرقام تقرأ على مراقب ومقاييس ، وأصبح الاتجاه الحديث الآن هو ترجمة الظواهر الطبيعية إلى رسوم بيانية ولوحات فوتوغرافية ، وهذا

(١) قل إن العالم الألماني هكل E Haeckel قد زور مرة في صورة الجنس حيوان حتى تبدو قرينة الشبه بحسن لإنسان فيتنبئ هذه نظرية الخدمدة في التطور آملا في أن يديع اسمه فلما كشف العلماء تروبره واحملت أكاديميه برلين بعدها المتهوى دعت العلماء من شتى بقاع الأرض لحضور اجتماعها ، ولكنها حرصت على أن تغفل دعوه مواطنيها هكل ، احتقارا له .

وفي أكتوبر ١٩٧٦ طالعتنا كبريات الصحف البريطانية وآخر فصيحة اهتزت لها الأوساط العلمية في العالم المتمددين ، ذلك أن السير سيريل بيرب Cyril Burt ١٩٧٢ كبر علماء النفس في بريطانيا قد ثبت أنه استعماري تعوره الأمانة العلمية إذ كان يؤكد في كتبه أن الجنس الأنص يمتاز على غيره من الأجناس الملونة بالذكاء والقدرات العقلية التي لا تحي وبالتالي يتمتع على المستعمرين أن يصنعوا برامج لتعليم الملونين بحيث تلامم مع مستوى ذكائهم وعقولهم وروح تلاميذه لهذه الطريقة المرعومة ثم تصدى للكشف عن كذبها بعد موته باحثون من علماء النفس في إنجلترا وأمريكا وأكثرهم من تلاميذه ورملائه تس لهم من مراجعة مصادر كتبه أنها مخلقة لا وجود لها إلا في ذهن كاتبها وأن الإحصاءات التي أدهبها بطريقه مخلقة وملفقة . فكان هذا موضع احتقار من علماء العالم المتمددين .

أصبحت وقائع الحس في لغة العالم رموزاً رياضية، وصياعات رمزية . كما أصبحت القوانين مجرد دلالات رياضية . وهذا تعبير الوضوح في القرن العشرين عما كان عليه الحال في العصور السابقة .

فيل إن جاليليو ١٩٤٢ Galileo قد كتب قانون العصور الدائري الذي يقرر أن كل جسم يظل على حاله سكونه أو حركته المنتظمة ، ما لم يوجد ما يغير حالته . ظل هذا بعد قانوننا حتى آخر القرن الماضي . ولكن علماء القرن العشرين قد اشتراطوا طاهره التعبير عن القوانين بأرقام ، يقولون اليوم إن هذا مجرد وصف للجسم المتحرك . وليس بمكانون ، فإن أريد له أن يكون قانوناً وجب أن يصاغ في رموز رياضية

هـ - الخيال بين لغة الأدب ولغة العلم :

إن دور الخيال في العمل الأدبي أساسي لا يستعنى عنه أديب . بل إمام أهم عناصر الأسلوب الفني . فإن الأديب يستعين به على تكوين الصور الأدبية التي تسمح للألفاظ في تعبيراته مناهيم حديده تثير متعة القارئ و بهجة السامع . والعالم بدوره لا غنى له عن الخيال . فإنه مضطر في نحرته - بعد مرحلة الملاحظة

والتجربة - أن يفرض فرضاً يتخيله لتفسير الظاهرة حتى يتوصل إلى قانون لتفسيرها ، وعلى الباحث أن يمتحن الفرض - الذي تخيله كمنسبر مؤقت - للتثبت من صوابه ، فإن تثبت بالتجربة بطلانه عدل عنه إلى فرض ثان وثالث ورابع ، حتى يهتدى بخياله إلى فرض يثبت بالتجربة صوابه ويكون قانوناً ، ولجون سنورت مل ١٨٧٣ J. S. Mill في كتابه System of logic خمس قواعد للتثبت من صحة الفروض (١) . فإن ثبت صواب الفرض أصبح قانوناً عاماً . وهكذا نرى أن فوام الفرض العلمي هو الخيال الذي يتفاوت فيه الباحثون بتماوت حطهم من الذكاء وسرعته المديهة وصعاده ان هن وسعة الاطلاع وغير هذا مما يساعد على تحيل الفرض الصحيح

واكن خيال العالم غير خيال الأديب وحيال العالم وسياه يستعان بها لكشف حقيقة ، ولهذا كان مرتبطاً بالواقع ، فتأمله تدمج في الواقع إلى حد أن العالم لا يتردد في التصحية بحال الحقيقة ، متى ثبت انه بالتجربة بطلانها ، أما خيال الأديب العمان فإنه يستعين بالحقيقة وسياه إلى كشف الجبال . ولهذا يستهدف العمان تحريك المشاعر حتى تتجاوز معد .

(١) فطن إلى الأصوليون من فقهاء المسلمين ومتكلميهم منذ العصور الوسطى ، أن الواع عن طريقة التلارم في الوقوع إن الملة بتردد أي دور مع الحكم وحوذا . وة الواع عن طريقة التلارم في التحلف ان الصلة ممكنة أي أديها بدور مع الحكم عدما ، ومن طريقة الجمع من الاماق والاحكام عروا عهم بدوران العلم مع مهله لما وحوذا وسادما - أو الطام العكسي فيما كدوا فواون انطركه ناء أسبر لعلله ط ٧ ص ١٦٩ وما بعدها

٦ - معيار التقييم في الأدب وفي العلم :

إذا كان قد قيل إن الأدب هو التعبير الجميل الصادق عن إحساس صادق ، فإن معيار جماله يقوم في الذوق العمى عند صاحبه وقارئه ، حقيقة إن الأديب يعيش بمقدار ما يحس التعبير عن أحاسيسه وانفعالاته وحواطره؛ بشرط أن تكون إنسانية تتخطى الزمان والمكان ، ولا تكون مجرد صدى لبيئته أو روح عصره ، وإلا مات أدبه بتغيير معالم البيئة وروح العصر ، عاش شكسبير لأنه صور العواطف والغرائز البشرية ، ولم يصورها مرتبطة بأهل بلده وعصره الذي عاش ، ومع هذا فإيس ثمة مقياس يقاس به جمال الأدب ، يكون خارج متاعر الأديب وقارئه، وليس هذا هو الحال عند العالم ، فإن من أخص خصائص العلم إمكان التثبت من صحة قوانينه بالرجوع إلى الواقع واستفتاء الخبرة والملاحظة الحسية في أمرها ، ولا مجال هنا لذوق العالم أو إحساسه أو غير ذلك من أدوات اختبار الصدق في حالات الفنون أو مما لا يدخل في وسائل الإثبات العلمي

وكذلك يبدو الصدق في الأدب مختلفا باختلاف الأفراد وذوقهم العمى ، وروح عصرهم ، بدما يتميز الصدق في حال العلم بالثبات مع اختلاف الأفراد والجماعات زمانا ومكانا ، وإذا أثبتت التجربة أن المعادن تتمدد بالحرارة ، كان من المحتم أن نتوقع من كل معدن - لم يختلط بغيره من

مواد تمنع تمدده - أن يتمدد بالحرارة في كل مكان وكل زمان . وليس هذا هو الحال في الأدب وغيره من فنون ، ومن أمثلة هذا ما نراه في شعر شوقي أمير الشعراء ، حمل على جناحه جمهرة قرائه إلى أقصى مراحل الإعجاب، بينما كان في الوقت نفسه مثارا لحملة ضارية شنها عليه العقاد والمازني ومن ذهب مذهبهما ممن جردوه من أبسط مقومات الفن الأصيل . . .

وليس هذا هو الحال في العلم ، لأن نتائجه تتمثل في أرقام يتساوى الناس في فهمها ، يقول كارل بيرسون K. Pearson في كتابه القيم Grammar of science إن أحكام العلم لا تتأثر بالوجدان الشخصي أو الأحكام الذاتية أو الأهواء الشخصية ، وتستبعد التحيز وتتوخى النزاهة العقاية .

٧ - بين أهداف لغة الأدب وأهداف لغة العلم :

فلنا إن اللغة هي أداة التعبير في العمل الأدبي ، وإن الرياضة هي لغة العلم الوحيدة في كل صوره ، فما الأهداف التي تنهى إليها تلك الوسيلة في الحالين . . ؟

أما أهداف لغة الأدب فتبدو في اتجاهين تحدهما مدرستان ، مدرسة ترى أن الأدب يصدر عن صاحبه كما يصدر الأرج عن الأهرار ، أو النور عن الشمس ، أو الحضرة عن النبات، وأما توجيه الأدب إلى تحقيق أعراض بعينها ترسم له أهدافا يفضى إلى

تحقيقها ، فهو إتلاف لطبيعته الفنية وإفساد لروحه . . ليس للأدب هدف مباشر يقصد إلى تحقيقه غير الجمال .

أما المدرسة الثانية فاعل رائدها في النصف الأخير من القرن الماضي هو كارل ماركس K. Marks ١٨٨٢ وترى هذه المدرسة أن يسخر الأدب وغيره من الفنون لخدمة الإنسان في حياته الدنيا ، فيعالج الآفات الاجتماعية في مجتمعه ، يشخص أعراضها ويرسم طرق علاجها ، ومن ثم يصبح الأدب دعوة إلى تعبئة الجهود وتكتل القوى لرفع مستوى الشعب ، والنهوض به في شتى مجالات الحياة السياسية والأخلاقية والاجتماعية بوجه عام ومنذ سنوات هاجم حروشوف المماليك الذين لا يسخرون لخدمة الحياة ، وأثار بهذا الكثيرين حتى من أهل عقيدته

ومن رواد هذا الاتجاه في أدبنا العربي المعاصر الدكتور طه حسين ، فهو يقول في «ألوان» أين الأدب إذا اعتزل الحياة أصبح لعوا من اللغو ، وسحفا لاعناء فيه . . إن الفن الخميل على اختلاف أنواعه هو السلم الذي تايح للشعب أن يرقى

ويسمو ويعنى بعظائم الأمور وحلائل الأعمال ويقول في : «أدبنا المعاصر» . . .

فالأدب لا يقاس بالجمال ولا يقاس بإرضاء الذوق ، ولا يقاس بتعميق المعاني والآراء ، ولا بهذا المذهب الفلسفي أو ذاك وإنما يقاس قبل كل شيء بالإعراب عن حاجه الشعوب إلى ما يقيم حياتهم المادية قبل كل شيء .

ومن الباحثين من ربط الفن بالأخلاق ، ورأى أن دارسه الخير وثيقة الاتصال بدراسة الجمال إلى حد جعل اليونان يستخدمون لفظا واحدا للتعبير عن الجمال والسبل الخلقى ، ويوحّدون بين الكمال والجمال وإلى مثل هذا ذهب بعض المتدّين ، من أمثال هربرت J. H. Herbart ١٨٤٤ مؤسس علم الجمال وأهلاطوني كمبردج وأصحاب مذهب الحاسة الخلقية وغيرهم^(١) وكرد فعل لهذا الاتجاه طهر مذهب الطبيعيين الذي أنشأه بازك وبشر به في فرنسا رعيم همدو المدرسة إميل زولا ١٩٠٢ E. Zola الذي طبق في الفن القصصى المذهب التجريبي (الذي أخذه عن كلود برنار) فصور الحياة في أدب مكشوف Ponography ولا تنى سوى هذه الحياة المكشوفة يعد أدبا ، لأن رسالة الفنان في رأيهم ليست رسالة وعظ وإرشاد ودين ، بل رسالة حق

(١) انظر كتابنا . أسس الفلسفة ب : ف ا ص ٣٨٣ - ٣٨٩

وجمال ، والشر حق موحود في الحياة ،
وفي تصويره البارع جمال (١) .

لكن الاعتراض على هذا الرأي قديم
فقد هاجم أرسطو في جمهوريته القصص
التي تسمى الذي يبدو أنه يفسد الصميم
ويشوه المثل العليا ، وكان يرى
أن الشعر والتصوير وغيرهما دجل يعتمد
إلى العواطف ويثيرها ولا ياجأ إلى العمل
المتزن الرزين ، لأنه لا يجد فيه محالا لعشه
ويحس تصوير الكثير من الشهوات
والمرعات المسحطة حتى يحملنا على الإعجاب
عما ذكره ، ولهذا كان من واجب المشرع
ألا يسمح بمثل هذا الفن العاثر في المدينة
(الماضاة) حتى يكفل لاضحايا الحياة
وعلى الناس أن يصنعوا على رأس هذا
الشاعر الماجن إكايلا آيه تهديرهم له
وإعجابهم به ، ثم يشيخونه إلى حدود
المدينة ليطرده منها وهم يتغنون بديع
واتعاء عايه

ومن المحدثين من يقول أن الفن الرفيع
لا يهدف إلى التهذيب والإصلاح ، وإن
قصد إلى ذلك جاء هذا عن طريق غير
مباشر ، بل إن آثار التهذيب والإصلاح

ليست أجمل ما انتخب عبقرية الفن من
روائع - فيما يقول بوب pop's Essay on
man ويرى الدكتور أن شكسبير ١٦١٦
كان يكتب فيما يبدو بغير عرض
أخلاقي ، ولم يكن على الدوام حريصا
على أن يشير إلى السخط على الشرير ،
وما يشبه هذا ممكن أن يقال في الفردوس
المفقود للمilton ١٦٧٤ J. Milton

والكوميديا الإلهية لدانت ١٣٢١ Dante
وثوره الملائكة لأناطول فرانس ١٩٢٤
Anatole France وغير هذا من آثار
الفن الخالدة وهل يجدي مثل هذا الفن
في رفع مستوى الأخلاق عند الناس ؟
إن مثله سيكون مثل الشحات الذي يعرج
في موكب صاخب ، وعلى غير حدود
يانمسن بهرجة انتباه أولئك الذين يسرون
في المركب محاميين له فيما يقول كاريت
Carit's Theory of Beauty

لأن الأدب إلى الصواب أن يقال
إن كلا الرأيين المتطرفين قد نال الصواب
فليس من الحكمة أن يخضع الفن لقبود
العرف ومقنضيات التمهيد ، لأنها تختلف
باختلاف الزمان والمكان وآثار الفن الخالدة

(١) من ذلك أن الشاعر الفرنسي بودلير * ١٨٦٧ Baudelaire أصدر ديوان شعره : « أزهار الشر »
متضمنة مقطوعات شعرية تصور الأجسام المتحللة والحس المادي ، ورفع أمره إلى انقصاء وأدين بمرامة (٣٠٠ فرنك)
مع حذف المقطوعات التي تماق الأخلاق . وأثار حكم القصائد أنصاره واتهم فكتور هوغو مع عمره القصائد بالعلم والجور
على قدسة الفن ولكن الحكم قد سر القائلين بتسجير الفن للحياة والأخلاق ، وكان فولك ماوي ١٩١٠ من بطلان
بإحصاء الفن لمبادئ الأخلاق ، ويرفصون الفصل بين الفن والحياة . (أسس الفلسفة ط ٧ ص ٣٨٥)

تعيش بفصل ما تضم من عناصر إنسانية
حالدة ، ولكن من العث أيضا أن نطالب
بتحرير الفن من مبادئ الأخلاق وقيمها
العليا ، وهي أصلا إنسانية خالصة
لا يحددها زمان ولا مكان فيما يقول بيري
Periy's The Moral Economy

أما عن القائلين بتسخير الأدب لخدمة
الحياة فإلهم يبالغون في دعوتهم إلى الحد
الذي يتحول فيه الأديب إلى مصلح اجتماعي
إن الأدب قد يصور الحياة، ولكنه ليس
صورة لها ولا بديلا عنها ، ولا إصلاحا
لعيوبها ، وقيمة العمل الأدبي تقوم في
أثره في نفوسنا ، والأدب خلق في
تخالف عناصر الحياة التي نشأ عنها ، ويترك
فيها أثرا أعمق من آثار تلك العناصر .

كان أرسطو يقول إن الواقعية ليست
في أن نصور ما حدث ، بل ما يمكن
أن يحدث له لا حسب منطق الحياة
كما نعرفها، بل حسب منطق الحياة في
القصص نفسها . . . ولو توقعنا من العمل
الأدبي أن يكون صورة صادقة للحياة ،
لأغتنا كتب التاريخ عن الأعمال الأدبية
حقيقة إن العمل الأدبي يصدر عن الحياة ،
ولكن الأديب إذا أحس بقاءه عاش في
خدمة الحياة مئات السنين .

هذه فكرة عابرة عن أهداف العمل
الأدبي ، فما هي أهداف البحث العلمي ؟

أهداف لغة العلم :

في أهداف لغة العلم اتجاهان يحددهما
مدرستان شبيهتان في بعض الوجوه بالمدرستين
السابقتين ، فالأولى تتمثل قديماً في فلسفة
اليونان، وهي ترى أن العلم في كل صورته
يكون هدفه العلم ، أي الكشف عن الحقيقة
بباعث من اللذة الفعلية دون نظر إلى
ما يحتمل أن يترتب على ذلك من خدمة في
حياتنا العملية أو إشباع لعواطفنا الدينية ،
كما كان الحال في حكمة الشرق القديم
أما المدرسة الثانية فهي أعم وأشيع ، وهي
تربط بين نتائج البحث العلمي ومطالب
الحياة الدنيا، وإن كان المظهر يسبق العمل ،
ولعل أكبر من مهدوا لهذا الاتجاه من الأوربيين
المحدثين فرنسيس بيكون ١٦٢٦ F Bacon

واضع أصول المنهج العلمي :

رأى بيكون أن أسمى أنواع العلم هي التي
تمكنا من السيطرة على طواهر الطبيعية لنتحكم
فيها من أجل مصلحة الإنسان في حياته ،
وهذا أوجب بيكون أن يسخر العلم لتحسين
أحوال الناس وتحقيق رفاهيتهم ورفع مستوى
معيشتهم ، فقيمة العلم مرهونة بأثره في
حياتنا العملية ، « والمعرفة قوة » ، كما كان
يقول دائماً . وأكد هذه الروح العملية من
المعاصرين أصحاب الفلسفة البرجماتية من
من الأمريكيين فيقول « جون ديوي » ١٩٥٢
J. Dewey : إن العلم مجرد فن تطبيقي أو

مشروع عملي ، والقوانين العامة ليست تفسيراً للظواهر الطبيعية ، إنما هي وسيلة لإجراء صفقات ناجحة في التعامل مع الوقائع الحسنة ، والهدف من ذلك ، تحقيق أغراض بشرية نافعة . . . إلى آخر ما يراه في بحوثه في المنطق التجريبي وما يتردد في كتابات غيره من دعاة الفلسفة العملية البرجماتية .

ومن آثار النزعة العملية في تصور العلم أن اتجه الباحثون منذ القرن الثامن عشر إلى تطبيقات القوانين العامة ، فكان ما نسميه اليوم بالتكنولوجيا ، وهي قوام حضارتنا المادية في عصرنا الحاضر^(١) فالبحث العلمي أساس التقدم ، والتكنولوجيا هي السبيل لتحويل ثمار هذا البحث إلى مواد وأجهزة ومعدات قابلة للاستخدام في الحياة العملية (كما يقول معجم العلوم الاجتماعية) .

حسبنا هذا من فروق تميز بين لغة الأدب ولغة العلم . .

ولا بأس من أن يحتتم حديثاً بكلمتين ، نجمل في أولاهما موقف الأدب الحديث من العلم ، ونوضح في ثابتيهما خطأ النقد والباس في استخفافهم بالأدب والقول بأنه مجرد تسلية ومصبغة لا وقت :

(١) موقف الأدب الحديث من العلم :

تقدم العلم في القرن الماضي تقدماً مذهلاً وأصبحت نظرياته آية في الدقة والإحكام

وأمكن تطبيقها فكانت مخترعات يسرت حياة الناس من ناحية ودمرت الكثير من أسباب الحصار الإنسانية من ناحية أخرى ، اخترعت آلاته أدت إلى إتقان الصناعة والزراعة وتيسير وسائل النقل ، وكان انقلاباً في حياة الإنسان لم يسبق له مثيل ، ولكن كثرت المصانع التي تستخدم الآلات الحديثة فكان شيوخ البطالة بين العمال ، إذ استغنى أصحاب المصانع عن كثيرين منهم ، فحدث في إنجلترا في أوائل القرن الماضي أن تجمهر العمال وأضرّبوا وهجموا على المصانع لتحطيمها وطالبوا بنصيبهم في ثروتها لأنها نشأت عن كدهم ، وظهر المتطرفون من الاشتراكيين الذين يريدون هدم نظام التملك القائم وقتذاك ووسط الجو المضطرب المعتم كان للمحدثين من الأدباء موقف من الآلة والمدنية العامة نشير إليه في الكلمات التالية

نتخير ثلاثة من أئمة الأدب الإنجليزي المعاصر ، من أصحاب النزعات الصوفية الرومانسية ، لنشير إلى تمردهم على الآلة التي ظنوا أنها جمدت الحياة الحديثة ، وأحالتها إلى ضجر مجذب ، وهؤلاء هم : دافيد هربرت لورنس ١٩٣٠ وتوماس ستيرن اليوت ١٩٦٥ والدوس هكسلي ١٩٦٣ .

فأما لورنس فيقول إن الآلة هي المسئولة عن العقم الذي أصاب الحياة الإنسانية في

(١) وإن عرفنا المجتمعات البدائية وأرادت بها المعرفة المساحة لتشكيل الأشياء المصنوعة في الحرف والمهن اليدوية ، كما تدل على المهارات في صنع الآلات .

العصر الحديث ، لأن الإنسان أصبح حادها
وكان سيدها ، فتضاءل شعوره بهرديته
وكيانه كإنسان ، وأضحى موقفه من
الحياة لا يعدو أن يكون موقف المتفرج .

ويتفق معه « إليوت » في نقد الحياة
العصرية ، ويصممها بالعقم والفشل ، ويرجع
ذلك إلى المدنية العالمية التي يعترف بأنها
أدت للإنسان الكثير من وجوه الخير المادي ،
وزودته بالمعربة والعالم ، ولكنها باعدت
بينه وبين الحياة وكنهها ، وطهست إدراكه
الروحي ، وتركته وهو أشقى مما كان قبل
أن يعرفها . إنها لم تعطه مريداً من
الحكمة ولا من الإنسانية ، بل تشعلته عن نفسه
فأضاع حياته فيما حد عليه من شئون العيش
وأضاع العلم نفسه فيما جمع من شتى المعارف .

أما « ألدوس هكسلي » فقد خالف رميليه
قليلاً في توترته على المدنية العلمية ، فهو
في روايته Brave New World وهي تدور
حول قصة العالم مستقبلاً يصور بظاهها
شاعراً رقيقاً يشد الحب والشعر والجمال
والحرية والنصاية ، ولكنه يعتقد في الحضارة
الجديدة كل هذه المعاني الحميمية إلى نفسه . . .

وهؤلاء الأدباء الثلاثة لا تختلف أفكارهم
حول المدنية العلمية عن فكرة شعراء الحركة
الرومانسية في النصف الأول من القرن

التاسع عشر ، من أمثال وردزويرث ١٨٥٠
وشيلي shelley وبيرون ١٨٢٤ في ثورتهم
على تصنيع إنجلترا في عهدهم مع فارق واحد
هو أن أولئك يضيئون بالواقع ، ويهربون
منه ، بينما كان أدباؤنا الثلاثة المعاصرون
يضيئون بالواقع ، ولكنهم يواجهونه مواجهة
صريحة قوية فعالة .

ونضيف إلى هذا موقف أديب فرنسي
سبق هؤلاء إلى ما يشبه هذا الموقف هو جان
جاك روسو ١٨٧٨ J. J. Rousseau فقد
ذهب في صدر شبابه إلى أن اردهار العلم
يؤدي إلى انحطاط الخلق . وأن التفكير
مناقص لطبيعة الإنسان ، وأن الإنسان
الذي يفكر ويتعقل حيوان فاسد الأخلاق .

مع أننا نرى أن الإنسان ميزته على
الحيوان الأعجم عقله وتفكيره : وعلى
أى حال عدل « روسو » عن الكثير من
أفكاره في كتابه « إميل »^(١)

ومع هذا فما من شك في أن الأدب
قد تأثر بالتقدم العلمي الحديث ، ومن
دلالات هذا شيوع القصة العلمية في
الأربعين عاماً الأخيرة ، شيوعاً أدى
بالكثيرين من أئمة الفكر والأدب في أوروبا
إلى التوجس من أن يؤثر ذلك على أنواع
القصص الأخرى ومنذ ثلاثين عاماً
ظهرت في عام واحد ، وفي شارع واحد

(١) انظر كتابنا العرب والعلم في عصر الإسلام الأدهى ص ٣٧٩ - ٣٨١

من شوارع لندن عشرة محلات تخصصت جميعاً في بيع القصص العامية ، وكثرت محلات بيعها في نيويورك، إلى أحد يجعل السائح يتوهم أن نيويورك لا تقرأ إلا هذا النوع من القصص ، كما كان يقول صديقه المرحوم الدكتور رشاد رشدي .

ولعل ما قلناه عن الأدب الفرنسي والإنجليزي المعاصر كان له صدى في بعض المعاصرين من أدبائنا في مصر .

(ب) الأدب في خدمة الفلسفة :

كثر الحديث عن الأدب الذي يتطلب صدق التعبير عن أحاسيس صاحبه . مشاعره وخواطره ، في لغة يتخير الملاحظها ويحسن وضعها من الجمل ، مع تخيل الصور الفنية التي ترضى حساسية القارئ . تشيع في نفسه الامتناع ، وشاع القول بأن الأدب يستهدف تصوير الجمال ولا يتجاوز هذا الحد إلى الاهتمام بأفان الحياة الاجتماعية وعلاج مشكلاتها ، وقد أدت هذه الأقوال بالكثيرين من الباحثين والنقاد والمتجادين إلى الاستخفاف بالأدب شعراً ونثراً ، والقول بأنه مجرد تساية ومصيبة لاوقت ، وهؤلاء محطئون أشد الخطأ وأفدحه ، وحسبنا للتدليل على خطئهم أن نقول : إن استقراء تاريخ النهضة شرقاً وغرباً يشهد بأن نقطة الشعوب تبدأ بالحركة الأدبية ،

ثم تأتيا النهضة العامية في كل المجالات هكذا كان الحال مع العرب أيام بني العباس وكان هذا أيضاً هو الحال في نهضة أوربا في مطامح مصورها الحديثة .

لقد بدأ عصر الإسلام الذهبي علم وفلسفة وحضارة — في منتصف القرن الثامن للميلاد — الثاني للهجرة — بعد أن سبقه نهضة أدبية تمثلت في أواخر العصر الأموي في شعراء من أمثال جرير والوليد بن يزيد ، وفي كتاب من أمثال سالم مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الكاتب — وهو أشهر من أن يعرف — والحسن البصري وغيرهم .

وأما عن عصر النهضة الأوروبية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فيكفي أن يقول عنه أكبر مؤرخي العلم « جورج سارتون » « ١٩٥٦ في كتابه History of Science newhumanism — إنه عصر ذهبي في الفنون والآداب ولكنه عصر مخيب لآمال مؤرخ العلم أي أن مؤرخ العلم لا يجد فيه من العلم ما يستحق أن يؤرخه . (١) ولكن اليقظة قد أعقبت عصر النهضة ، وكان طلائعها في القرن السابع عشر على يد تيخو براه ١٦٠٩ Tycho Brahe عالم الفلك الدنمركي الذي كان يباشر عمله

(١) مع استثناء لـوناردو دافنشي ١٥١٩ ومكيلا ١٥٢٧ والمصورين الملورنسين الذين مهدوا للشاشة علم التشريح ، وفيساليوس ١٥٦٤ وكوبرنيكوس ١٥٤٣ ولم يكن هؤلاء من أهل العلم الأصل

في أول مرصد عرفته أوربا ، وتلميذه
كبلر ١٦٣٠ Kepler الذي استغل ملاحظاته
في تحديد مدار المريخ حتى توصل بعد تسع
سنين إلى المدار البيضي وترعرع في وصح
قوانينه ، وجاليليو ١٦٤٢ Galileo الذي أتم
عامياً رأى كوبرنيكوس ١٥٤٣ Copernicus
في القول بدوران الأرض ، واختراع
المقرب (التلسكوب Telescope) ، وكان
فجر النهضة العلمية الحديثة ، وكان أول
رائد حديث شغف بالرياضيات واعتبرها
أداة العاوم الفيزيائية . . وغير هؤلاء

بل تقول في التدايل على خطأ الدين
يستخفون بالأدب ويعتبرونه مصيحه لاوقت .
إن الفلسفة تقوم أصلاً على منطق العقل ،
وتستبعد العاطفة والخيال ، وتهتم بالتجريد
وتصعد من المحسوس إلى المعقول المجرد
ومع ذلك فإن الماظر في تاريخها ، قديمه
وحديثه ، لا يملك إلا أن يقول إنها استعانت
بالأدب ، شعره ونثره ، في التعبير عن أعظم
الأفكار وأدق المعاني :

فالفلسفة منذ أيام أفلاطون - أي منذ
نحو أربعة وعشرين قرناً من الزمان - حتى
يومنا هذا لم تستعن في فترة من حياتها عن
الخيال أو تتحلى عن الشعر . . فمن قديم

الزمان أدرك حكماء البشرية أن الحقيقة
كثيراً ما تتخفى وراء الأساطير والخرافات
والأقاصيص والحكم الشعبية ، ولهذا قيل
إن الفيلسوف مهما حاول أن يجعل عقله
حكماً في كل قضية تعرض له ، أو أن يعد
فلسفته مجرد أنظار عقلية أو حكمة تمار
بالدقة فإنه يجد نفسه محمولاً على أجنحة
الخيال إلى عالم تختلط فيه الحقيقة بالشعر ،
ويمتدح فيه الواقع بالخيال :

وحديثاً عبر الوجوديون عن المواقف
الميتافيزيقية بالأسلوب الروائي ، وكانت
الروايات والقصص والمسرحيات عندهم هي
التعبير الحي عن تجارب الإنسان بوصفه
موجوداً ميتافيزيقياً ، والحقيقة عندهم
لا تدرك بالعقل وحده ، ولهذا يعبرون
عن الواقع كما يتكشف لهم خلال العلاقة
بين الإنسان والعالم ، وهي فعل وعاطفة
قل أن تكون فكراً وتصوراً كما تقول
«سيمون دي بوفوار» ، ومن ثم
أصبحت الرواية غير دخيلة على الفلسفة ،
بل تعبيراً حياً عن المواقف الميتافيزيقية ، وبها
تتكشف علاقة الإنسان بالعالم وبالأخرين :

ومن الفلاسفة المحدثين من كان يقدر
الشعراء حق قدرهم ، وفي مقدمة هؤلاء

« هرجسون » ١٩٤١ وكان هو نفسه من خيرة الكتاب المحدثين في الفلسفة ، بل كان من الفلاسفة أدباء ، ومن الأدباء فلاسفة ، فكان كبير كجار ١٨٥٥ Kierkegaard ونيتشه ١٩٠٠ Nietzsche والوجوديون المعاصرون من أمثال سارتر ١٩٨٠ وسيمون دى بوفوار يعبرون عن أفكارهم الفلسفية في روايات ومسرحيات وأفلام سينمائية ، بل رأى الفيلسوف الإنجليزي هويتهد ١٩٤٧ A. N. Whitehead الالتجاء إلى الشعراء بين الحين والحين تيسيرا للتعبير عن بعض الأفكار الفلسفية العميقة .

وإذا كان هذا هو شأن الفلسفة مع الأدب ، فإن الأدب بدوره قد احتل في فرنسا إبان السنتين سنة الأخيرة مجال الفلسفة ، ولا أدل على هذا مما نراه في إنتاج الأدباء من مسرحيات وروايات وأشعار ومقالات . شغلت مجالات فلسفية عند أمثال بلزاك ١٨٥٠ وفكتور هوغو ١٨٨٥ V. Hugo وبول فاليرى ١٩٤٦ . ومع هذا فإن الأدباء يجأرون بالشكوى من^٢ تطفل الفلسفة على موائد الأدب ، واحتلالها لأرضه على غير إرادته . ربما كان السبب في ذلك شيوع الفلسفة في فرنسا واتساع جمهورها بعد الحرب العالمية الثانية ، بدليل كثرة المحلات الفلسفية

وتعدد الندوات الأدبية والفكرية إلى حد أن أصبحت الفلسفة حديث الناس في الطرقات والملاهي والحوائيت ، ولعل مرجع ذلك إلى أن الفلاسفة قد ارتدوا إلى الاهتمام بدراسة الإنسان ، وهو موضوع الأدب المعاصرة

وإذا كان من الأدباء المعاصرين من يحتاج على غزو الفلسفة لأرض الأدب ، فإن من الفلاسفة المعاصرين من يهاجم الخلط بين الفن والفلسفة ، فن ذلك أن بعض أصحاب الوضعية المنطقية ينددون بدعاة الميتافيزيقا الذين يمزجون الفلسفة بالفن ، ويهتمون بمذاهبهم بأنها نخاوية من الحقيقة ، لأن هؤلاء الوصفيين المنطقيين يرون أن وظيفة الفلسفة تقوم في تحليل الألفاظ والعبارات تحليلًا منطقيًا ، في ضوء ما سموه بمبدأ التحقق Principle of Verification ومؤداه أن كل لفظ لا يكون له مدلول حسي في الواقع ، يكون فارغًا من المعنى ، وهذا رأوا أن المحسوس هو وحده الذى يحمل معنى ، وبهذا المعيار استبعدوا من محلات البحث :

الميتافيزيقا والعلوم الفلسفية المعيارية والغنون على اختلاف أشكالها ، وقالوا إن الميتافيزيقا تبحث في المجردات دون المحسوسات ، وأنها عمل فني لا يستقرئ الواقع ، بل يقوم على الخيال ، وأصحابها - في رأيهم -

شعراء قد صلوا سبلهم وراحوا يقدمون قصائد من نسج الخيال . . . فداهم الميثافيزيقية ملاحم شعريه تعبر عن إحساس أصحابها بالوجود والحياة ، بل جاهر رودلف كارنب ١٩٧٠ Camap بأن الموسيقى ربما كانت أقدر من فلسفتهم على تأدية هذه الوظيفة لأنها مجردة من كل عنصر موضوعي ، فالميتافيزيقيون في هذه العصور موسيقيون علموا كل موهبه موسيقية. إلى آخر ما رآه في كتابه

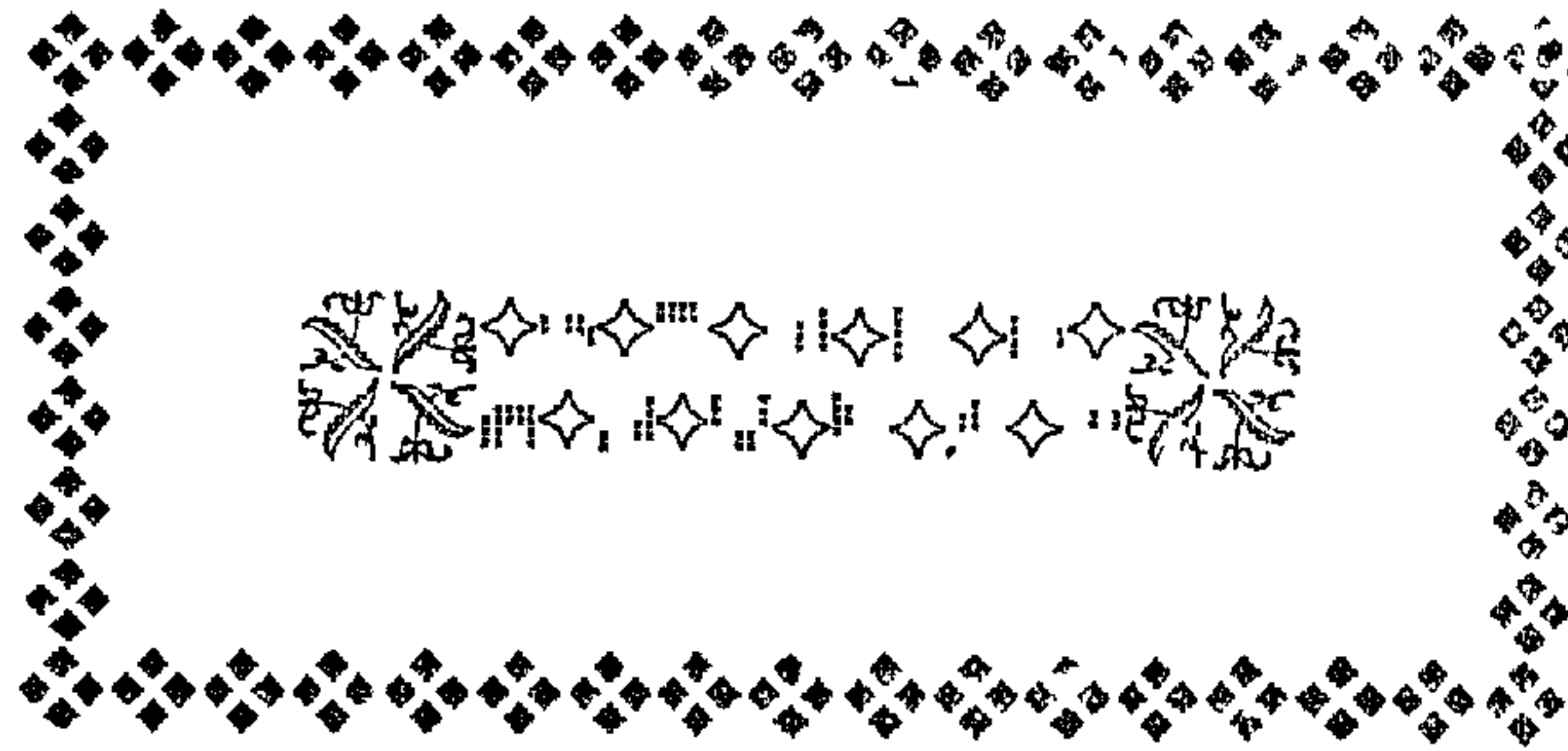
عن العلم والميتافيزيقا مع أن الفلسفة في حقيقة أمرها تستهدف الكشف عن الحقيقة وليس التعبير عن الجمال ، ومعيارها هو الصدق المنطقي، لا الحسن وبراعة التعبير عن الأحاسيس.

حسبنا هذا بيانا لأهم الفروق الصخمة التي تميز بين لغة الأدب ولغة العلم ، وقد بدا لنا من خلالها أن التعارض بينهما كان يبلغ حد التناقض في أكبر الحالات .

شكرا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

توفيق الطويل

عضو المجمع



مصادر البحث

شكري محمد عياد : مدخل إلى علم الأسلوب

د رشاد رشدي : ماهو الأدب ؟

د زكريا إبراهيم : مشكلة الفلسفة

د عبد القادر القط : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر

J.W. Sulivon, The Bases of Modern Science Kal Pearson, The Grammer of Science

Bertrand Russell, The Scientific Gutlook leo Spitzer, linguistics & litterary Hist ,
essays in Stylistics René Wellek & Qustin Warren, Theory of litterature Steplen
ullmann, Language & Style.

S. Ievons, Principles of Science

Sii J. Jeans, The New Back ground of Science

J. Conant, Science & lommon Sense

M. Walker, The Nature of the Scientific Thoubt
